الحياة الإسلامية العامّة

الحياة السياسية والدبلوماسية

لم يكن عند العرب مفهوم للدولة واضح، فضلاً عن افتقادهم لمفهوم سياسي أو دبلوماسي.. ولم تكن لهم تجربة واضحة لسياسة المدن، وكانوا يعتمدون كما أشرنا من قبل على قانون الأعراف والتقاليد والعصبيات، ولم تتمكن القبائل التي أقامت تجمعات كبيرة فيما بينها من إيجاد هوية عامّة للمصالح المشتركة.. وكان التفكك دوماً يهدد الوحدة المصطنعة.

كان النبيﷺ يجمع السلطات الروحية والزمنية لأمة تنضم كل منظماتها في دولة واحدة. وقد أكد على ضرورة الحياة الجماعية التي تربط أفرادها تحت حكم رجل واحد، يقضي بالدستور الذي هو القرآن والسنة الصحيحة والشورى. فلما مات عليه الصلاة والسلام انتقل الحكم إلى خليفته الذي بايعه المسلمون .

ولم يحكم النبيﷺ الدولة الناشئة الأولى في المدينة من نفسه، وإنما حكمها باختيار الأغلبية من أهلها وهم أصحاب

الرأي الذين جاؤوا فبايعوه في العقبة بمكة.. وبموجب ذلك انتقل إلى المدينة حاكماً.. وكان ذلك انتخاباً ديمقراطياً بالأغلبية، لا بالإجماع.. وكان ذلك كذلك أمراً جديداً لم يعرفه العرب من قبل.

كان الصحابة يبايعون النبيﷺ، فيقسمون يمين الولاء له، كما كانوا يؤدون ذلك للخلفاء من بعده.. إن أساس تنظيم الدولة عقد بين الحاكم والمحكوم. ومن الناحية العملية فإن الأعيان هم الذين يبايعون، وهذه الولاية بالعقد تتضمن إمكانية إلغائه، ومن ثم فقرار الإلغاء يكون منهم أنفسهم.

مارس الرسولﷺ سياسة لم يستطع أحد من قبله أن يمارسها على النحو الرائع الذي استغل فيه الأحداث استغلالاً سياسياً دقيقاً لمصلحة الدولة الفتية التي يقودها، ولم يَخْطُ خطوة في التصرفات مع خصومه، ولم يبرم معاهدة إلا كان له القِدْح المعلّى، والتوفيق الأكيد. ولم يلحق بربه إلا وقدَّم نظرية سياسية ودبلوماسية راسخة.

ولئن كان كلام النبيﷺ تشريعاً للأمة لأنه مبعوث من الله، فإن سلطة خلفائه محدودة، لا يمكنهم إلغاء شيء من التشريعات التي أقرها عليه الصلاة والسلام، فهم زعماء دستوريون يخضعون للقانون مثل رعاياهم، وليسوا فوقه. ويمكن أن يَمْثُلَ أي خليفة أمام القضاء للمحاكمة.

بعد وفاة الرسولﷺ انتخب المسلمون خليفته انتخاباً.. بايعته عليه الأكثرية وقامت ضده معارضة منذ البداية. وكان الانتخاب مدى الحياة. وكان خطابه الأول أمام المسلمين يبين سياسته الواضحة القائمة على الإسلام، وكان منه قوله : «لقد ولّيت عليكم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، أطيعوني ما أطعت الله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم، الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه»[1] فرسم بذلك خطة عمل جميع الخلفاء من بعده.

انقسمت مهمات الدولة الإسلامية مع أول قيامها إلى أربع سلطات ؛ السلطة التنفيذية، وضمت الإدارتين العسكرية والمدنية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية، والسلطة الثقافية.

والجدير بالذكر هنا أن الناس متساوون جميعاً أمام القانون، حتى حاكم الدولة كما ذكرنا. أما غير المسلمين فقد تنزل القرآن بتشريع يتعلق بصلتهم بالدولة؛ فجعل لهم استقلالاً قانونياً، وترك لكل طائفة محاكمها الخاصة وقضاتها الذين يحكمون بقوانينها المدنية والجزائية..

والخليفة يحكم بالقرآن والسُّنة، ويلتزم إن لم يجد فيهما

(١) البداية والنهاية، خلافة الصديق.

بالتشاور مع أهل العلم من الرأي المشهود لهم، وقد أخذ النبيﷺ بمبدأ الشورى تطبيقاً لأوامر القرآن في ذلك.

وأمر النبي عليه الصلاة والسلام بطاعة الخلفاء، ما داموا يطبقون قانون الله، وحذّر من مخالفتهم أو الخروج عليهم «اسمعوا وأطيعوا، ولو استُعمل عليكم عبدٌ حبشي كأن رأسه زبيبة، ما أقام كتاب الله فيكم»[١]. فمحا بذلك العصبيات القبلية.

ولما حكم النبيﷺ المدينة أقام سياسة واضحة لدولة حضارية من جوانبها الداخلية والخارجية، وما قامت دولة في العالم أَحكمُ منها تنظيماً سياسياً ولا دبلوماسياً ولا ديمقراطية ولا عدلاً حتى اليوم، على تقدم الزمن في ذلك العصر، وانعدام المثيل.

حكم النبيﷺ في المدينة كما قلنا مجتمعاً غير متجانس[٢] منتخَباً من الأكثرية، فقامت سياسته على إحكام الروابط الداخلية مع السكان، ثم على مهادنة القبائل المحيطة، فسيطر بذلك على ما يمكن أن يفاجئه عدوُّه، وغدت العاصمة ذات هيبة في نفوس عدوه، وازدادت قوة يوماً بعد يوم.. وما انتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن وطّد دعائم حياة سياسية ودبلوماسية من الطراز الأول.

---

(١) كنز العمال ٦/ ١٤٧٩٩.

(٢) انظر نص السيرة النبوية عند الحديث عن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة.

كانت دولة المدينة التي حكمها النبيﷺ تمثل اتحاداً لقرى مستقلة. يسكنها المسلمون واليهود والوثنيون، وقد اعترف دستور المسلمين بالتسامح الديني.. وأول معاهدات الدفاع أبرمت مع غير المسلمين.

وإلى جانب ذلك فقد نظّم النبيﷺ الحياة الدبلوماسية، بدأها في الوقت المناسب حينما فرض على العرب معاهدة هدنة الحديبية في السنة السادسة من الهجرة، فجعل يبعث رسله إلى الدول المجاورة للجزيرة يحملون كتبه ويقومون بالسفارات، وقد اختار رسلاً أكفياء، علمهم كيف يخاطبون الطبقة العليا في المجتمع وكيف يتصرفون، وما كان ذلك معروفاً لدى العرب.. بل كانت الدول المجاورة تنظر إليهم نظرة ريب أو احتقار أو لامبالاة. ولذا فقد كان رسل النبيﷺ موضع احترام الجهات التي وصلوا إليها، واستقبلهم الملوك والأمراء استقبالاً حسناً، ما عدا ما كان من كسرى والحارث بن شمر اللذين وقفا من الدعوة موقف العداء ابتداء، فأساءا إلى السفيرين.

وبالمقابل فقد احترم النبيﷺ السفراء الذين كانوا يأتونه وأكرمهم، وأنجز لهم مهماتهم. ولم يتعرض لهم بسوء، مع إساءة بعضهم إساءة بالغة؛ فقد أرسل كسرى سفيرين من قبل عامله باليمن باذام للقبض عليهﷺ، فتلقاهما بالقبول وأهدى لهما هدايا، مع قدرته على قتلهما، وقال لسفيري مسيلمة

الكذاب اللذين صرَّحا بالكفر البُواح : «لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما»[١].

ومن غريب ما وقع أن سفيراً من طرف قريش يدعى أبا رافع جاء إلى النبيﷺ مبعوثاً في مهمة، فلما رأى النبيﷺ وقع في قلبه الإسلام، ورغب أن يتخلى عن مهمته التي جاء من أجلها، فقال له رسول اللهﷺ : «إني لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البرود [السفراء] ولكن ارجع إليهم فإن كان في قلبك الذي فيه الآن فارجع»[٢].

وبذلك يكون النبيﷺ قد وضع القانون الدبلوماسي الحضاري على أعلى مستوى فيه.

الحياة العسكرية (الجهاد)

لم تقم دولة الإسلام فعلاً على قاعدة الحكم والإدارة إلا بعد البعثة بثلاث عشرة سنة، وبعد أن هاجر المسلمون إلى المدينة واستقروا بها، وأنشؤوا المؤسسات المختلفة وكان على رأسها المؤسسة العسكرية التي لا بد منها في كل دولة صغيرة أو كبيرة.

لقي المسلمون في مكة خلال السنوات المذكورة عنتاً وعذاباً أليماً، ولم يرفعوا في وجه أحد سلاحاً، بالرغم من

(١) كنز العمال ٦/ ١٤٧٧٨.

(٢) أبو داود. لا أخيس : لا أنقض.

المؤامرة المستمرة على قتل رسول اللهﷺ.. لأنّ الله لم يأذن لهم بالدفاع عن النفس.. ولعل حكمة الله في ذلك أنه يقيم الحجة على أعداء المسلمين، ويريد أن يفسح لهم أجلاً ليعرفوا الإسلام وتعاليمه، وليفكروا في أمرهم بهدوء ولكن زعماءهم رفضوا المسلمين ودينهم كل الرفض.. ثم جابهوهم في القتال وبدؤوه في السنة الثانية للهجرة.. فأذن الله عندئذ لرسوله أن يدافع عن نفسه بالسلاح، حين لم تنفع فيهم الحجج التي حاججهم بها، ونزل قوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٢٢/ ٣٩-٤٠] ولكنه حذرهم من تجاوز الحد والظلم في القتال، لأن المقصود الدفاع عن النفس، وهي نفس حرم الله العدوان عليها عموماً من دون ذنب، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٩٠].

وقبل كل شيء فقد وضع رسول اللهﷺ المسلمين أمام مسؤولياتهم العسكرية التي عرّفهم مفهومها، فالقتال في الإسلام لا يكون من أجل غايات شخصية، ولا لقضية عصبية تخصُّ القبيلة، وإنما للدفاع عن حوزة الدين، وإلا خرج المقاتل من

ربقة الإسلام، فإن مات مات على الشرك، ولذلك سمى القتال المشروع جهاداً.

وبناء على هذا قاتل المسلمون في سبيل قضية سامية، بذلوا فيها أرواحهم وأموالهم، فزهدوا بالحياة، ورأوها سريعة الانقضاء، واستهانوا بالموت، لأنهم موعودون إن قتلوا بالمنزلة الرفيعة منزلة الشهداء التي ليس فوقها غير مكانة الأنبياء.. ومن أجل ذلك كان النصر حليفهم دوماً مع قلة عددهم وضعف استعدادهم وقوة من يجابهونه من الجيوش.. ولم يمض القرن الأول الهجري إلا وتوسعوا في البلاد شرقاً، فوصلوا حدود الصين وجنوب شرق آسيا، وغرباً فبللوا أقدامهم بمياه الأطلسي وصعدوا إلى بلاد البلغار.. وهبطوا إلى إفريقيا.. وحكموا العالم آنذاك، وصارت لهم الكلمة الأولى، وبنوا حضارة مشهودة.

وقد احترم المجاهدون المسلمون النفس الإنسانية، فلم يجابهوا غير الذين يقاتلونهم تنفيذاً لتعاليم النبيﷺ، وقد أوجزها الخليفة الأول أبو بكر الصديق حينما خرج جيش أسامة بن زيد لمجابهة الروم الذين احتشدوا على تخوم الجزيرة لغزو المسلمين، فقال له ولمن معه : «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله؛ لا تخونوا، ولا تغلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجرة، ولا تعقروا نخلاً، ولا تحرقوه، ولا تذبحوا شاة ولا

بعيراً إلا لمأكلة. وإنكم ستمرون على أقوام فرَّغوا أنفسهم في الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له. قاتلوا من يقاتلكم، وسالموا من يسالمكم»[١].

ومما يدل على أن الحرب في الإسلام كالدواء وليس غاية في ذاتها الآدابُ الحربية التي جاء بها النبيﷺ، وطبَّقها في كل المعارك التي خاضها ؛ فكان هو أول من وضع ما يسمى اليوم بالقانون الدولي الإنساني الذي لا يطبقه القوي على الضعيف في هذا العصر الذي يسمى عصر الحضارة الحديثة.

نهى النبيﷺ بشدّة عن قتل النساء والأطفال والعبيد والأُجَراء والمسنين كما مرّ في وصية أبي بكر، ونهى عن تتبع المقاتل الهارب، والإجهاز على الجرحى، أو إيذائهم.. فضلاً عن الإحسان إلى الأسرى ومعاملتهم بالحسنى. وأكرم النبيﷺ قتلى العدو، فلم يكن يمر بجيفة أحد إلا أمر بدفنها احتراماً للنفس الإنسانية، في حين كان عدوه في بعض المعارك يمثل بجثث المسلمين أبشع تمثيل. بل كان يحرص عليه الصلاة والسلام على هداية عدوه أكثر من حرصه على التغلب عليه «ما على الأرض من أهل بيت من مدر ولا وبر إلا أن تأتوني بهم مسلمين أحب إليّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا

(١) تاريخ الطبري والكامل في التاريخ في السنة الحادية عشرة من الهجرة. وقعر النخلة قلعها من أصلها.

رجالهم»[١] ولذلك كانت حصيلة الحروب الإسلامية لعهد النبيﷺ من المسلمين وعدوهم وخلال عشر سنوات وفي أكثر من ستين غزوة وسرية لا يجاوز ألف قتيل على أعظم التقديرات.. وكان المسلمون هم المنتصرين فيها كلها إلا ما ندر.. أفلا يدل ذلك على أن رسول اللهﷺ نبي الرحمة والإنسانية.

والنتيجة أن القانون الدولي الإسلامي يدعو إلى :

١) صيانة الأبرياء من المدنيين والضعفاء وعدم الاعتداء عليهم.

٢) احترام الأسرى بعيداً عن التعذيب والتجويع والتعطيش والإخافة والإهانة، والعمل على مداواة جرحاهم.

٣) احترام القتلى ودفنهم، وعدم التمثيل بهم.

٤) الكف عن الفساد؛ فلا تهديم للممتلكات ولا اعتداء على حرمات العدو في عرضه أو مقدساته.

٥) احترام المواثيق والعهود القائمة مع العدو، ولو نتج عن الاتفاقات الموقعة ضرر وإجحاف بالمسلمين. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٤] وقال النبيﷺ : «ألا من ظلم معاهَداً أو

(١) شرح السير الكبير للشيباني.

انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»[١] وقال : «من قتل معاهَداً بغير حق لم يرح رائحة الجنة»[٢].

٦) نظام الأمان ولو كانت الحرب قائمة، فيستطيع أفراد العدو طلب الأمان والدخول إلى بلاد المسلمين والإقامة فيها ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٩/٦].

فماذا يقول اليوم مسعرو الحروب؟

أهداف الحرب الإسلامية

والحرب في الإسلام قامت لثلاثة أسباب؛ أولاها التصدي لهجوم مفروض كما حصل في المعارك الأولى التي خاضها النبيﷺ، فهي حرب دفاعية. وثانيها تأديب خصم اجترأ على الدولة وتآمر عليها، فأضرّ بها بالرغم من وجود عهد وميثاق بينه وبين المسلمين كغزوة بني قريظة وحرب مؤتة وغزوات الأعراب الذين لا يراعون ذمة لأحد، فهي حرب تأديب. وثالثها إحباط تخطيط يهدد المسلمين كغزوة تبوك، وكالسرايا التي كان يرسلها النبيﷺ لصد هجوم القبائل التي كان أفرادها يتجهزون للهجوم على المدينة.

---

(١) أبو داود وأحمد والبيهقي.

(٢) البخاري.

وتتلخص أهداف الحرب الإسلامية بهدفين اثنين؛ أولهما «تأمين الحرية لنشر الدعوة» ولا يعني هذا نشر الدعوة بل حماية الحرية في نشرها، لأن نشر الإسلام بالقوة يعني الضغط على غير المسلمين للدخول في الإسلام، وهذا لم يحدث.. وسوف نشير إلى هذه المسألة في العنوان الآتي «لا إكراه في الدين». والهدف الثاني «توطيد أركان الدولة» فالأمة بغير جيش قوي تتعرض للضياع وطمع العدو ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٨/ ٦٠].

ومما يدل على أن الهدف هو السلام قول الله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٨/ ٦١] وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢/ ٢٠٨].

والنتيجة أن الإسلام من السلام، والسلام اسم من أسماء الله، وتحية المسلمين السلام.. والحرب ليست إلا في حالات ضيقة، والقتال فيما سواها جريمة بحق الإنسانية.

لا إكراه في الدين

ليس المقصود في الحرب الإسلامية السيطرة على الأراضي ولا قهر العدو والتسلط على الشعوب وإنما إيصال الدعوة التي

كلف الله بها نبيهﷺ «بلغو عني ولو آية»[١]. وقد أشرنا آنفاً أن من أهداف الحرب الإسلامية «حماية الحرية من أجل نشر الدعوة» ولا يعني هذا نشر الدعوة، بل حماية نشرها، لأن نشر الإسلام بالقوة يعني الضغط على غير المسلمين للدخول في الإسلام، والله يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢/٢٥٦]. ولو كان الإسلام انتشر بالسيف لزال سلطانه من القلوب بزوال دولته حين ضعف أهله وتسلط أعداؤه عليهم، ولكن الهدف من الحرب كان حماية العقيدة وتأمين حرية نشرها، وصد الاعتداء الخارجي عن دولة الإسلام.

ثم إن المجاهدين المسلمين حين دخلوا تلك البلاد الفسيحة لم يتعرضوا لأهلها من المدنيين كما أشرنا، وتركوا لأهل الديانات السماوية معابدهم وحريتهم الدينية، وحموهم في أموالهم وأعراضهم، ولم يعرضوا السيف على أحد لزم نفسه ودينه.

ولم يدخل المجاهدون أرضاً إلا بعد أن يرسلوا إلى أهلها أنهم جاؤوا للدعوة ولم يأتوا لحرب، فإن تعرضوا لقتالهم قاتلوهم ولم يبدؤوهم هم، فأي جيش يفعل هذا في أرض يريد اغتصابها؟ دخل المسلمون سمرقند[٢] عام ٩٣هـ/ ٧١١م دخولاً

(١) كنز العمال ٢٩١٧٥.

(٢) سمرقند: من مدن أوزبكستان اليوم.

مفاجئاً، ولم يشعر أهلُها إلا والجيش قد خالطهم، ولم يقع بين الطرفين قتال.. فاعترض السمرقنديون على أمير المسلمين، وقالوا له : لقد دخلتم أرضنا دون أن تعلمونا لنتجهز لحربكم، فخالفتم بذلك شريعتكم، فيجب أن تنسحبوا كما دخلتم، واختلف الغالب والمغلوب، ولم يقنع أحدهما الآخر. ثم اتفقوا على أن يعلنوا هدنة يرسلون خلالها إلى خليفة المسلمين في دمشق عمر بن عبد العزيز، يسألونه ما يفعلون. وغاب الرسول شهرين في سفره بالذهاب والعودة، ورجع يحمل رسالة الخليفة إلى قائد الجيش يأمره أن يعين القاضي عبد الله بن جُميع ليحكم بين الفريقين. وحكم القاضي على المجاهدين أن ينسحبوا من المدينة، وأن يعوضوا على السمرقنديين لقاء ما فعلوه.. ولما بدأ الجيش بالانسحاب قال أهل البلدة: رضينا بكم. ودخلوا في دين الله بعد أن عرفوا الإسلام خلال تلك المدة[1].

ولما وصل الفتح الإسلامي إلى بيت المقدس طلب أهلها المصالحة، وأن يكتب الخليفة عمر بن الخطاب العقد بينهم وبين المسلمين، وجاء عمر من المدينة، فسلَّم المقادسة مفاتيحها إليه، وكتب لهم ما عُرف باسم العهدة العمرية: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين

(١) تاريخ الطبري.

أهل إيلياء [بيت المقدس] من الأمان، أعطاهم أماناً لأنفسهم، وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها، وبريئها، وسائر ملتها.. أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها، ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضارَّ أحد منهم».

شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان.

وكُتب، وحُضر سنة خمس عشرة[١].

ولما حانت الصلاة وعمر في الكنيسة عُرض عليه أن يصلي فيها، فقد صلى نصارى نجران ذات يوم بصلاتهم في مسجد رسول الله ﷺ، والمسلمون يشاهدونهم في توجههم نحو الشرق.. فرفض عمر حفاظاً عليها، لكي لا يقال : هنا صلى عمر فتُجعل الكنيسة ذات يوم مسجداً في نزاع ربما يقوم بين أهل الدينين، فخرج وصلى إلى جوارها.. حيث بني فيما بعد مسجد عمر، تعالت مئذنته قريباً من برج الناقوس فيها.

وبمثل العهدة العمرية وقَّع أبو عبيدة بن الجراح مع الدمشقيين معاهدة، وعلى منوالها كذلك هادن عمرو بن العاص أهل مصر .

ولم تكن معاهدات المسلمين حبراً على ورق، وإنما بقيت

(١) الطبري، اليعقوبي، الخراج.

التزاماً في عنق الفاتحين، نجد مصداقها في رسالة بعث بها البطريرك تيودوسيوس من بيت المقدس إلى الأسقف أجناديوس في بيزنطة يقول فيها : «إن العرب هم رؤساؤنا الحكام، وهم لا يحاربون النصرانية، بل على العكس من ذلك يحمونها، ويذودون عنها، ويوقرون قساوستنا ورهباننا، ويجلون قديسنا»[١].

ولما انتصر صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين لم يعاملهم بالسوأى تلقاء ما فعلوه من فظائع على مدى سنوات طويلة، بل أكرم قائدهم ريتشارد قلب الأسد، وأمّن خائفهم، وأبلغ من أراد منهم مأمنه.

على أن الإسلام لم ينتشر في كل البلاد على أيدي الفاتحين، وإنما آمنت بلدات عديدة بدعاية التجار الذين حملوا الدعوة الجديدة مع بضائعهم إلى جنوب شرق آسيا، وإلى قبائل الهوسة والفولاني جنوب خط الاستواء بإفريقيا، وإلى حوض الفولغا في روسيا، فكانت أخلاقهم التي ألزمهم إياها القرآن والسنة خير داعية «إنّ من أحبكم إليّ، وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً»[٢].

ومن أكبر الأدلة على أن همّ المسلمين نشر الدعوة لا فتح

(١) من كتاب «الله ليس كذلك» لزغريد كونكه.

(٢) كنز العمال ٥١٨٤.

الأرض أو اغتصابها تركُ الرسولﷺ أرضَ خيبر بيد أصحابها، واكتفائه بضرائب يدفعونها إليه، ولم يضع فيهم السيف مع حربهم له، وما قاتل غير المقاتلين، وفوق ذلك، فقد وقع في أيدي المسلمين بخيبر لما فتحوها صحائف من التوراة، أخذوها إليه فجاء اليهود إلى رسول اللهﷺ يطلبونها، فأمر بدفعها إليهم[1]. كما أبقى عمر أرض السواد في العراق لأهلها، وهي أخصب الأرضين وكتب عليهم الخراج، لئلا ينشغل المسلمون عن حمل الإسلام إلى سائر الأقطار.

لا إكراه في الدين عنوان الدعوة الإسلامية.

نوع آخر من الجهاد

وفي الإسلام مفهوم آخر للجهاد، وبطريقة أخرى، هو جهاد النفس والشهوات، وجهاد المعاصي، وجهاد الطاعات.. فيعيش المسلم على الدوام حالة في دفع رغباته التي لا يرضى عنها

(١) يقول إسرائيل ولفنسون : ويدل هذا على ما لهذه الصحائف في نفس الرسول من المكانة العالية مما جعل اليهود يشيرون إلى النبي بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، حين لم يتعرض لصحفهم المقدسة بسوء. ويذكرون إزاء ذلك ما فعله الرومان يوم تغلبوا على أورشليم سنة ٧٠م، إذ أحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم، وما فعله المتعصبون من النصارى في حرب اليهود بالأندلس، فأحرقوا كذلك صحف التوراة. وهذا هو البون الشاسع بين الغزاة ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام» من كتابه «تاريخ اليهود ببلاد العرب».

الله، فيُلزم نفسه ترك المعاصي فلا ينحرف، ويلزمها القيام على العبادات مع المشقة فيها أحياناً، فلا يتكاسل.. وبذلك يصل إلى التزكية التي حث عليها دينه. وكلما التزم بها كان أقرب إلى الله. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ٤٩ / ١٣].

الحياة الاجتماعية

المتأمل في آيات القرآن والأحاديث الخاصة بالمجتمع يجد دعوة مركَّزة للتلاحم الاجتماعي والتماسك لبناء أرضية اجتماعية متينة، والتشريعات كلها تدور حول هذه الدعوة، وكذلك الغطاء الأخلاقي. إضافة إلى أن الأفراد كلهم متساوون ولو اختلف الجنس والعرق واللون والنسب. كان في مجتمع المدينة سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال الحبشي وكان هؤلاء من كبار الصحابة حين قال النبيﷺ : «سلمان منا أهل البيت»[١] وقال : «ليس لعربي فضل على أعجمي إلا بالتقوى»[٢]، «الناس سواسية كأسنان المشط، وإنما يتفاضلون بالعبادة»[٣] ولذا كان الإسلام دعوة عالمية للناس كافة أبيضهم وأسودهم وأحمرهم وأصفرهم.

اهتم النبيﷺ بأخلاق المجتمع، وحرص على إحصان الشباب لئلا ينحرفوا إلى المحرمات فقال : «يا معشر الشباب

(١) كنز العمال ١١/ ٣٣٣٤٠.
(٢) أحمد.
(٣) كنز العمال ٩/ ٢٤٨٢٢.

من استطاع منكم الباءة فليتزوج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء»[١] وبالمقابل حرم الإسلام الزنا وقضى على موجباته، فأمر بغض البصر، وحرّم الخلوة بغير المحارم، وفرض الحجاب.

والأسرة الإسلامية الحق أسرة متماسكة تجتمع على التآلف، يحترم فيها الصغير الكبير، ويعطف الكبير على الصغير «ليس منا من لم يوقر كبيرنا ويرحم صغيرنا ويُجِلَّ عالمنا»[٢] ولكل فرد في الأسرة حقوقه، وعليه واجباته بدءاً بالزوجين فالأولاد فالكبار من الآباء والأجداد.

الزواج والأسرة

وضع الإسلام تشريعات مفصلة في العلاقة بين الزوجين لتُبنى الأسرة على المودة والرحمة، ويقوم البيت على السعادة والحب.

فأول خطوة في تأسيس الأسرة مرحلة الخِطبة، فاشترط في الخاطب أن يكون كُفئاً للمرأة، من مستواها الاجتماعي الذي تعيش فيه عند أهلها، لئلا تتأثر في الانتقال إلى ظروف أدنى، فتفسد حياتها.

---

(١) متفق عليه. الباءة : القدرة على الزواج. وِجاء : وقاية.

(٢) كنز العمال ٦٠٥٢.

ثم إن التشريع أمر وليها أن لا يزوجها إلا بموافقتها، فيستأمرها قبل العقد، فيكون زواجها برضاها.. وتحتفظ بعد الزواج باسمها واسم أسرتها .

وفرض لها حقها في الحصول على المهر، لا يملكه أحد سواها، وعلى النفقة من طعام وكسوة وتمريض وسكن ومعاشرة بالعدل والمعروف، مع حريتها الكاملة في تصرفها بأموالها الخاصة دون رقابة من أحد ما دامت راشدة..

وبالمقابل فإن من حق الزوج عليها أن ترعى أولاده كما أمر الله، وأن تشرف على شؤون الأسرة، وأن تطيعه بغير معصية لله، فإن أمرها بمعصية فلا طاعة له عليها.. وإن انحرف رفعت شكايتها إلى القاضي.

وراعى الإسلام حقوق الزوجين الجنسية، وأمر كلاً منهما أن يقوم بها على الوجه الصحيح؛ فعلى الزوج أن يبادر إلى إشباع رغبة زوجته.. ونهاها أن تمتنع عن فراشه إلا خلال أيام حيضها ونفاسها، إذ يحرم عندئذ أن يأتيها، وفيما عدا ذلك فإن المطلب الجنسي مطلب مهم في إحصان كل منهما، وسدٌّ لباب الفساد.

وإن ضعفت قدرة الزوج الجنسية أمكن للزوجة إن أرادت أن تطلب التفريق.. ولا ينبغي أن تمكنه من الجماع في مواضع الشذوذ، فإن أصرّ رفعت أمرها إلى القاضي.

ومع كل ذلك فإن لم يوفق الزوجان إلى العيش بسعادةٍ، شَرَعَ الله لهما الطلاق، وهو آخر الحلول بعد الدعوة إلى الصبر، وإصلاح ذات البين، وللمرأة أن تطلب المخالعة.

وحفظ التشريع حصن الأسرة، فحذر من اتهام الزوجين بعضهما لبعض، وصان عرض المرأة، فعاقب على القذف، ونسب الولد للفراش، وحرم الزنا، وشدد في عقوبته.

ويسمح الإسلام بتعدد الزوجات.. الأمر الذي يثير المغرضين، ويرون في ذلك امتهاناً للمرأة. إن مسألة التعدد ليست مطّردة، وإنما هي حلّ لحالة معينة، من أجل ذلك رغّب الدين الاقتصار على واحدة. قد تكون الزوجة الأولى عقيماً، والزوج يرغب بالولد، وقد تكون مريضة لا تقدر على النهوض بمطالب الزوجية، وقد تكون ذات برود جنسي لا تلبي حاجة الزوج الشابّ..

وقد تكثر النساء في مجتمع ما، ويقل عدد الذكور كما حصل في بعض الدول الأوربية إثر الحربين العالميتين الأولى والثانية، فهل تترك نساء كثيرات يعانين من الترمل والعنوسة لا يقوم بحاجتهن الرجال القلائل؟

وإن لم تقبل الزوجة الأولى بضرّة استطاعت أن تطلب المخالعة والتفريق، فتُعطى ما تريد على أيسر حال. وهذا غاية التسامح.

وتلقاء تعدد الزوجات فقد شرع الإسلام لهن العدل في النفقة وفي المبيت الليلي، وحرّم أن يهجر الرجل إحداهن لغير سبب، وحثه على محبتهن فقال الله تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩/٤] ، وشجع على الليونة معهن والمسامحة في التعامل، والاحتكام إلى الشرع دوماً.

ولقد كانت الحياة الزوجية التي عاشها النبيﷺ مثالاً للبيت السعيد الهانئ، بالرغم من أنه جمع عنده تسع نسوة في وقت واحد، وكان ذلك خاصاً له عليه الصلاة والسلام.. بصرف النظر عن أنه تزوج كل امرأة لأسباب تشريعية ذكرها علماء السيرة وبأمر الله تعالى.. وكن كلهن أرامل إلا واحدة، ولو شاء تزوج الأبكار ولكن المغرضين لا ينظرون إلى هذا.

الأبوان

وكرّم الإسلام الأبوين غاية التكريم، وفي أكثر من نص في القرآن وفي الحديث؛ فدعا إلى برهما ورعاية حقوقهما، وجعل ذلك طريق الفوز والجنة، وحذر من عقوقهما وعدّه من الكبائر المهلكة، وجعله طريق الخسران والنار.

الأولاد

وشرع الدين للأولاد حقوقاً، فحرّم على المرأة إسقاط الجنين، لأنه اعتداء على النفس، ورخص للحامل والمرضع

الإفطار في رمضان إن خافتا على ولديهما. وفرض للصغار أن يرضعوا حولين كاملين، كما شجع النساء على إرضاع أولاد الآخرين. ودعا النبيﷺ الأبوين إلى اختيار الأسماء الحسنة للمواليد، وذبح الشياه ابتهاجاً بولادتهم. وفرض ختان الذكور.. ثم السعاية عليهم للكسب الحلال.

ومن المهم المطلوب من الوالدين تربية الأولاد على الأخلاق السوية، وتنشئتهم على الخير والحق والإيمان والعبادات ليكونوا أعضاء صالحين في المجتمع؛ «ما نحل والد ولداً أفضل من أدب حسن»[١]، وحذر من إهمالهم؛ «كفى بالمرء إثماً أن يضيّع من يعول»[٢]

وجعل القيام عليهم مسؤولية أمام الله كما في نص الحديث «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[٣].

وقد كان رسول اللهﷺ أسوة في العطف على الصغار من أولاد بناته الحسن والحسين ابنا فاطمة وأمامة بنت زينب، وكذلك أولاد زوجاته وأولاد آل البيت.. ثم أولاد الصحابة عموماً. حتى قال أنس بن مالك : «ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول اللهﷺ»[٤].

---

(١) الترمذي ١٩٥٢.

(٢) كنز العمال ١٦/ ٤٤٤٩٥.

(٣) البخاري ٤٩٠٤، مسلم ١٠٨٥.

(٤) مسلم ٢٣١٦.

ذوو القربى

وأحكم الدين روابط المجتمع فأمر بصلة ذي القربى من أعمام وعمات وأخوال وخالات، ومن يتصل مع هؤلاء بنسب، فجاء في الحديث «الرحم معلقة بعرش الرحمن، تقول : وصل الله من وصلني، وقطع من قطعني»[١]. وجعل للأقرباء حقوقاً ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ﴾ [الروم: ٣٨/٣٠] ولذا وجب على المسلم تفقد أرحامه بمدّ يد العون إليه بالمال عند الحاجة أو بالسعي في شؤونهم، أو بودهم.. كل حالةٍ بحسبها.

الجوار

ولزيادة روابط المجتمع أمر التشريع بالإحسان إلى الجار في آيات عديدة، ضمن سياق الوصايا، وأحاديث مختلفة «ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[٢]؛ ولذا فرض له حقوقاً هي حقوق المشاركة بالأفراح والأحزان ..

الضعفاء

والمتأمل في التعاليم الإسلامية الخاصة بالمجتمع يجد أنها مبنية على العطف والرقة والرحمة، والبعد عن الجفاء والغلظة والشدة؛ فأوصى النبيﷺ بناء على إرشادات القرآن باليتيم والرقيق والخدم، ووضع الوصي على أحدٍ منهم موضع مساءلة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود.

اليتامى

حث الرسولﷺ على رعاية اليتيم المهيض الجناح المكسور الخاطر، ليكون عضواً صالحاً في المجتمع، ووعد بجزاء من يقوم على يتيم بالثواب العظيم، فقال: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين» وأشار بالسبابة والوسطى، وفرّج بينهما[1]، وحذر القرآن من يقومُ على ماله أن يمدّ يده إليه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ١٠﴾ [النساء: ٤/ ١٠].

المرأة

أنزل الإسلام المرأة المنزلة التي تستحق من الاحترام، وأعطاها حقوقاً كاملة غير منقوصة.. في زمن كانت تهان فيه، ليس عند العرب الجاهليين، وإنما عند غالب الأمم. والدراسات تشهد على ذلك. وقد أمر برعايتها والعطف عليها صغيرة وكبيرة، وفي كل مرحلة من مراحل حياتها العمرية والوضعية، وأمر بالإحسان إليها. والمغرضون يتهمون الإسلام بأنه قهر المرأة الإنسان، وظلمها، وجعلها دون منزلة الرجل، فيؤولون النصوص على هواهم، ويفترون على الحق.

والحق أن التشريعات الإسلامية نزلت بتنظيم المجتمع،

(١) البخاري والترمذي وأبو داود.

واحترام كل شريحة فيه. ولئن رفع الغربيون شعار المساواة بين الجنسين، فإنّ ذلك دعوة ظالمة، لم تراع طبيعة كل منهما.. ليس في الطبيعة مساواةٌ تامة بين الجنسين، وليس فيها تكرار غير مفيد، وإنما تتوزع فيها الطبائع والوظائف، فالرجل لا يحمل، والمرأة لا تلقِّح.. وكذلك طبيعة الأشياء؛ للمرأة تركيبها الجسمي الرقيق، وأذواقها تتلاءم مع المحافظة على هذه الرقة.. بينما يكون الرجل أصلب عوداً، مجبولاً على القيام بالمشاق من متطلبات الحياة.. ولكل منهما حاجاته الطبيعية المعقولة.. ولئن تفاوتت طبيعة كل من الجنسين، فستقوم بينهما وظائف مشابهة. وهذا ما يفسر التشريعات الإسلامية الخاصة بالمرأة، فهي مساوية له في بعض أمورها، مخالفة في أمور أخرى.

سوّى الإسلام بين الرجل والمرأة في المطالبة بالإيمان وفي المأمورات بالعبادات والمعاملات، وفي المنهيات كشرب الخمر والربا والميسر والغش والكذب والغيبة والنميمة والفساد والإفساد وكل منهيٍّ عنه. وخيّرها في حضور الجمعة والجماعة، وأعفاها من زكاة الحلي على بعض المذاهب.

وأعطى الإسلام المرأة حق التصرف في مالها كالرجل تماماً، لا تُسأل عما تفعل، ولا تستشير أحداً إلا إن أرادت، لا تستعين بأب أو أخ أو زوج أو ابن أو أي شخص آخر، وإن

أقرضت زوجها مالاً فعليه أن يرده كما يرده للآخرين من الغرباء، وإن استدانت فلا يُسأل أحد غيرها. ويحق لها الميراث الذي شرعه الله بالقسمة المبيَّنة في القرآن، وتستطيع بملء إرادتها أن تهب من مالها وأن تهدي، كما يحق أن تكتسب من عملها الذي يبقى لها وحدها.

وإذ يطعن المغرضون بالنصيب المكتوب للمرأة من الميراث بأنه نصف حصة الرجل فإن ذلك مردود عليهم، لأنهم يأخذون المسألة بظاهرها دون سياق الحياة الاجتماعية في الإسلام، ويفوتهم عدل الإسلام وتكامل نظرته؛ فالمرأة إن ورثت النصف فليست مسؤولة عن النفقة، لا على نفسها ولا على بيتها، والمسؤول الزوج ولو كان فقيراً.. ومسؤولية الرجل عموماً في النفقة ليس عليها فقط، بل على أخواته غير المتزوجات إن لم يكن لهن مال، وعلى أمه وأبيه، وعلى بنات عمه القاصرات والفقيرات اللواتي لا يجدن معيلاً، يجبره القاضي على ذلك إن امتنع. ولا تكلف هي إن قبضت يدها عن مساعدتهن، وإنما تُرغَّب بدفع زكاة مالها إليهن.. وفوق هذا فتأخذ نفقة الطلاق إن هي انفصلت عن زوجها. والأبعد من ذلك أن الشرع لا يجبر المرأة على خدمة الرجل وعليه أن يوفر لبيته خادماً إن استطاع.. كما لا يُلزمها الدِّين إرضاع ولدها، وعلى الزوج أن يستأجر من ماله مرضعاً إن امتنعت عن إرضاعه.

ومقابل ذلك فقد رفع الإسلام الرجل فوقها درجة، وهي

درجة تكليف ومسؤولية، أكثر مما هي درجة تشريف، ذلك لأن الرجل مكلف بالإنفاق على البيت وحمايته مما يمكن أن يسبب العدوان عليه، ثم إنّ الأسرة مؤسسة مهمّة في المجتمع الإسلامي، ولا بد أن يكون لها رئيس أو مدير يشرف عليها، تكون له الكلمة النهائية.. وهل يتصور أن تقوم مؤسسة من غير مدير؟ إن في ذلك لفوضى عارمة.

ولكن هذه الإدارة تخضع لقوانين فصلها التشريع، لا يجوز أن يخرج عنها هذا الرئيس، وإلا عاقبه القضاء وكفّ يده، وأصغر فرد في تلك المؤسسة يستطيع أن يقول له : «لا» إذا خالف بنداً من بنود القانون.

والرئاسة في هذه المؤسسة لأسباب بيّنها الله تعالى في قوله: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ [النساء: ٤/ ٣٤] فهذه الرئاسة (القوامة) بسبب خصائص الرجولة وزيادة الخبرة وبسبب الإنفاق على الأسرة. واصطلاح «القوامة» هنا من القيام بالأعباء والتبعات والمسؤوليات.. فمن الطبيعي أن تسند الرئاسة هنا للكفي من الرجال.. فإن كان الرجل ضعيفاً يسقط وتتولى المرأة شؤون الأسرة.

والمرأة المسلمة حرّة عموماً كالرجل، والحوادث أيام النبيﷺ تدل على ذلك كما تذكر القصة الآتية، وفيها أن عائشة أم المؤمنين أعتقت جاريتها بريرة، فملكت عندئذ أمر نفسها

فأنهت رباط الزوجية من زوجها العبد مغيث الذي كان يحبها حباً جماً، وهي تكرهه، فاستشفع برسول الله ﷺ ليكلمها، فلما كلمها قالت له : يا رسول الله، أتأمرني بشيء واجب عليّ؟ فقال لها :لا، إنما أنا أشفع، فقالت بكل حرية للنبي العظيم : لا حاجة لي فيه.. واختارت أمر نفسها[1].

والمرأة المسلمة تتحلى بفضائل خاصة فرضت عليها، أهمها الخمار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ﴾ [الأحزاب: ٣٣/ ٥٩] وتلتزم العفة والاحتشام والحياء والآداب، وتجتنب الزينة لغير محارمها، ولا تتعطر لغيرهم ولا تتبذل.. ومع الخمار فرض الإسلام غضّ البصر من كل من الجنسين لمنع ما قد ينتج عنه من إثارة ﴿قُل لِّلۡمُؤۡمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِمۡ وَيَحۡفَظُواْ فُرُوجَهُمۡۚ ذَٰلِكَ أَزۡكَىٰ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٣٠ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٢٤/ ٣٠-٣١].

على أن الخمار لا يعيق حرية المرأة واندماجها في المجتمع البتة، ولا يمنعها من العمل النافع، والدليل على ذلك حياة الصحابيات اللواتي كنّ في بؤرة المشاركة اللصيقة في أحداث التاريخ، يشاركن في المعارك عوناً للمجاهدين ورديفاً مهماً ضرورياً، وربما حملن السلاح ضد العدو عند اللزوم، وقدَّمن

(١) أسد الغابة، كتاب النساء، ترجمة بريرة مولاة عائشة.

آراءً مفيدة للخلفاء حتى في أمور الدين الأساسية، وكن مع الرسولﷺ في أموره كلها في المسجد وخارجه، وجادلنه في شؤون حياتهن ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١].

وقفت امرأة في وجه عمر بن الخطاب في المسجد حينما أراد أن يحدد المهور بمقدار معين، فقالت له : «ما ذاك لك يا عمر» قال : «ولمَ؟» قالت : «لأن الله تعالى يقول : ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٤/ ٢٠] » فقال عمر : «امرأة أصابت ورجل أخطأ». وشاركت عائشة أم المؤمنين في المعارضة ضد علي بن أبي طالب، وقادت معركة الجمل التي شارك فيها الآلاف.. وكان الصحابة يرجعون إليها، فيجدون عندها في خلافاتهم العلمية رأياً صائباً وحجّة.

وليس في الإسلام ما يمنع من عمل المرأة، وكان في الصحابيات نسوة يعملن في البيع والشراء، وفي الصناعة كالدباغة والغزل فيهن عطارات يبعن العطر، وقينات يزيّن النساء، لأن العمل في الدين مطلوب. ولكن ظروف المرأة الجسدية والاجتماعية والتربوية تمنعها من العمل أحياناً أو من العمل المرهق، وتستلزم بقاءها في البيت، وخصوصاً للأمر المهم المشرِّف وهو القيام على الصغار ورعايتهم، وهذه أكبر

خدمة تقدم للمجتمع وأعظم مسؤولية، وضياع الأولاد ضياع الجماعة.

ولمع على مدار التاريخ الإسلامي نسوة عظيمات في السياسة والعلم والفكر والأدب والتربية، يطول الحديث في ذكرهن، وقد أنشأن رجالاً عظماء. هذا والمغرضون يفترون الكذب، وأكثرهم لا يعلمون، أو يعلمون فيحرفون.

الرقيق والخدم

أما الرقيق والخدم ففي الأحاديث الشريفة عنهم فصول طويلة، تنتظمها الدعوة إلى الرحمة عموماً في قول النبيﷺ : «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[١] وقد ضبط الإسلام أحوال الرقيق والعلاقة بالخدم، ووضع لهم حقوقاً، وطالبهم بواجبات وسن لهم تشريعات، في حين لم يكن لهم في الجاهلية أي تنظيم، ولم يتمتعوا بأي حق، فرفع الدين الجديد من شأنهم واعترف لهم بإنسانيتهم، وراعى شعورهم لرهافة إحساسهم.

طالب النبيﷺ المالك أن ينظر إلى الأرقاء نظرة احترام : «لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي»[٢] وسمى

(١) كنز العمال ٥٩٦٩.

(٢) البخاري ومسلم وأبو داود.

النبيﷺ الأرقاء إخواناً، وطلب من السادة مراعاة شعورهم : «إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه من طعامه وليلبسه من لباسه، ولا يكلفه ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليُعنه»[١] وقال أيضاً مبيناً حقوق الرقيق : «للمملوك على سيده ثلاث خصال ؛ لا يعجله عن صلاته، ولا يقيمه عن طعامه، ويشبعه كل الإشباع»[٢].

وحذر النبيﷺ من إهانة الأرقاء أو اضطهادهم، فقال : «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يعتقه»[٣] كما حذر من يشتري رقيقاً له أقرباء أن يبعدهم عنه، ورغب في التسامح معه؛ «اعفوا عنه كل يوم سبعين مرة»[٤] وشكر لمن أحسن إلى الإماء؛ «من كانت له جارية فعالها، وأحسن إليها، ثم أعتقها وتزوجها كان له أجران»[٥].

وكان رسول اللهﷺ مثالاً عظيماً في موقفه العملي من الخدم والعبيد الذين امتلكهم، فعاملهم خير معاملة حتى حمدوه كلهم وخدموه مخلصين.. وقبل وفاته أعتقهم كلهم وسرَّحهم.. وساعد على تحرير سلمان الفارسي، وحرر صفية بنت حيي اليهودية

(١) البخاري ومسلم.
(٢) كنز العمال ٢٥٠٤٣.
(٣) مسلم وأبو داود وأحمد.
(٤) الترمذي وأبو داود.
(٥) البخاري ومسلم.

من الرق، وتزوجها فصارت أماً للمؤمنين، وكذلك فعل بجويرية بنت الحارث التي وقعت في الأسر بغزوة بني المصطلق، وتزوجها أيضاً.

وإذا كان المغرضون يتهمون الإسلام باعتماد مبدأ الرق فإنّ في ذلك خطأً في الفهم، فالإسلام لم يصنع الرق، بل تعامل معه على طريق الإلغاء، واستنكر وجوده في المجتمعات الغربية ممن كانوا يأسرون الأفارقة الأحرار، ويحملونهم قسراً إلى أمريكا عبيداً، يعاملون بأقسى معاملات التوحش، وما كتبه روائيوهم عن اضطهاد الزنوج يعدُّ كافياً[١]. وقد جمع محمد الفاتح العثماني معظم الدول الغربية، فوقعت على (بروتوكول) اتفق فيه الجميع على إبطال الرق.

الحيوان

ولم ينس الإسلام حق الحيوان، فأمر بالرّأفة به ودفع الأذى عنه، ومنع من الاعتداء عليه بشدة؛ «دخلت امرأة النار في هرة حبستها، فلا هي أطعمتها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض، فماتت»[٢]. وقصّ النبيﷺ قصة رجل نزل بئراً من أجل سقاية كلب ضال، فقال في حقه «فشكر الله له، فغفر له»، ولما سأله الصحابة : «أئن لنا في البهائم أجراً يا رسول الله؟»

(١) انظر مثلاً رواية كوخ العم توم لهاربت بيتشر ستو.

(٢) كنز العمال ١٦/ ٤٣٧١٦.

قال : «في كل كبد رطبة أجر»[١]. ونهى عن التحريش بين البهائم[٢]، ولعن من وسم بهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها[٣]. وأحاديث الحيوان كثيرة عديدة.. وما ذكرناه قليل منه.

القضاء

قام القضاء في الإسلام لإحقاق الحق وإبعاد الظلم ولذلك كانت له شروطه ونظامه، وجُعلت سلطته فوق الناس كلهم، لم يُستثن منها أحد حتى الخليفة. قال النبيﷺ : «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٤]. ولذا كان القضاء مستقلاً، ولا سلطة لأحد على القاضي، وهو يتمتع بالحرية الكاملة في قضائه واجتهاده بالقضايا ويده مطلقة لا يستطيع أحد أن يرد حكمه لأنه يحكم بالاستناد إلى القرآن والسنة ويجتهد فيما لم يجد فيهما بالقياس عليهما. ومن هنا فقد حذره رسول اللهﷺ من الحيف بقوله: «قاضيان في النار وقاضٍ في الجنة؛ قاضٍ عرف الحقَّ فقضى به فهو في الجنة، وقاضٍ عرف الحق فجار متعمداً، أو قضى بغير علم، فهما في النار»[٥].

---

(١) كنز العمال ٦/ ١٦٣٥٠.

(٢) الترمذي وأبو داود، والتحريش بين البهائم ما يفعله بعض الهواة في إثارة الديكة بعضها على بعض. هذا فضلاً عن حرمة مصارعة الثيران وغرس الأسهم في رقابها.

(٣) مسلم والترمذي وأبو داود.

(٤) البخاري ومسلم.

(٥) رواه الحاكم في المستدرك بكتاب الأحكام.

ومن جهة أخرى فقد أنكر النبيﷺ على المترافعين إلى القضاء أن يزينوا الكلام أمام القاضي فيضيع الحق؛ «إنما أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي له على نحو ما أسمع، فإذا قضيت له فإنما أقطع له قطعة من نار»[١].

وللقاضي في الإسلام آداب يتوجب عليه الالتزام بها إضافة إلى العدل، فيطلب إليه أن يكون مرتاح النفس في مجلس الحكم؛ «لا يقضين حَكَم بين اثنين وهو غضبان»[٢]، وأن يسوِّي بين الخصمين في المكان والنظرِ إليهما والاستماعِ منهما وخطابهما، وأن يلقي لهما بذهنه وفكره تماماً ولا ينشغل عنهما بشيء، وألا يكون جائعاً ولا حاقناً[٣] وألا يتعجل في الحكم.

وقد وضع عمر بن الخطاب الخليفة الراشدي ورقة عمل تلخص للقاضي المسلم طريقة القضاء، حين كتب رسالة إلى القاضي أبي موسى الأشعري، قال فيها :

١- أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنّة متبعة.

٢- فافهم إذا أُدلي إليك، فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لا نفاذ له.

---

(١) كنز العمال ٣/ ٧٩٢٧.

(٢) كنز العمال ١٥٠٣٩ و ١٥٠٣١.

(٣) الحاقن : حابس البول.

٣- آس بين الناس في مجلسك ووجهك، حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييئس ضعيف من عدلك .

٤- البينة على من ادعى، واليمين على من أنكر.

٥- الصلح جائز بين الناس، إلا صلحاً أحلّ حراماً أو حرّم حلالاً.

٦- لا يمنعك قضاء قضيته بالأمس، فراجعت فيه نفسك، وهُديت إلى رشدك أن ترجع إلى الحق، فإن الحق لا يبطله شيء، واعلم أن مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل.

٧- الفهمَ الفهم فيما يتلجلج في صدرك مما ليس فيه قرآن ولا سُنّة. واعرف الأشباه والأمثال، ثم قس الأمور بعد ذلك، ثم اعمد لأحبها إلى الله، وأشبهها بالحق فيما ترى.

٨- اجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهي إليه، فإن أحضر بيّنة أخذ بحقه، وإلا استحللت عليه القضاء.

٩- المسلمون عدول في الشهادة إلا مجلوداً في حد، أو مجرّباً عليه شهادة زور، أو ظنيناً في ولاء أو قرابة؛ إن الله تولى منكم السرائر، ودرأ عنكم بالبينات.

١٠- إياك والقلق والضجر والتأذي بالخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر، ويحسُن الذخر، فإنه من صلحت سريرته فيما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين للدنيا بغير ما يعلم الله منه شانه الله؛ فإن الله لا يقبل من

عباده إلا ما كان خالصاً، فما ظنُّك بثواب عند الله في عاجل رزقه، وخزائن رحمته؟

الحدود والعقوبات

وإذا كان القضاء لإقامة العدل فينتج عنه معاقبة المذنب بالعقوبة الرادعة التي يستحقها جرّاء ما اقترف. وليست العقوبة انتقاماً من الجاني بمقدار ما هي تأديب له من جهة، وحماية للمجتمع من أخطار العدوان من جهة أخرى، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ٢/ ١٧٩] والتقوى هنا هي الحماية. وإذا رأى بعض الناس العقوبة أحياناً شديدة مؤلمة، فإنّ الفتك بالمجتمع وتعريضه للقلق والاضطراب أشد إيلاماً، فأيهما أرحم قتل نفس واحدة ظالمة أم بث الرعب والخوف في الناس والاعتداء عليهم بالقتل؟ وأيهما أعدل جلد معتدٍ على عرض وحرمات أم تعريض الحرمات إلى الأذى والعدوان؟ القاعدة إذن حماية الكتلة الاجتماعية، وتوفير الأمن والحماية لها.

ولقد تكفل الإسلام بما يسمى «الكليات الخمس» وفرض لها الحماية والاستقرار والأمن، وهي النفس والعقل والدين والعرض والمال. وفرض العقوبة المناسبة لكل من يعتدي على واحدة منها.. ومن هنا كان المجتمع المسلم مجتمعاً آمناً مطمئناً يعيش برغد وراحة، والتاريخ شاهد على ذلك. وما دخل إليه

الفوضى والتأخر إلا بتراخي قبضة القائمين على الحكم، وتساهلهم بواجباتهم التي ناطها الله بهم.

والعقوبات في الإسلام على نوعين؛ الأول الحدود؛ وهي العقوبات التي حددها الله في القرآن، والثاني التعزيرات؛ وهي ما كانت دون ذلك مما يجتهد فيه القاضي بإيقاع التأديب المناسب على المذنب؛ فالحدود تنحصر بقتل القاتل المتعمد، أو دفع الدية إذا لم يكن في القتل عمد ولا نية مسبقة للجريمة. ويقتل قاطع الطريق ورافع راية الإضرار العام بالمجتمع أو يصلب وينكّل به. وحد السرقة قطع اليد، وحد القذف[1] الجلد ثمانين جلدة. ويُجلد الزاني غير المتزوج مئة جلدة، ويُرجم المتزوج. وشارب الخمر يضرب أربعين ضرب تحقير.

ولقد حرص النبيﷺ على دفع العقوبات عن الناس قدر المستطاع؛ خشية أن يكون الذنب غير متحقق الوقوع، وقال : «ادرؤوا الحدود بالشبهات ما استطعتم»[2] ولم يوقع حداً بأحد إلا بعد تيقن الذنب تماماً، فما أقام حدّ الزنا إلا على رجل وامرأة اعترفا بما فعلا، وأصرّا بأنفسهما على إقامة الحدّ عليهما، لأن الحدّ يطهّر الذنب. ومن أجل هذا لم يعاقب عمر بن الخطاب أحداً على السرقة عام الرمادة، وعفا عن فتية سرقوا سيدهم لأنه كان يجيعهم.

---

(١) القذف : اتهام المرأة بالزنا.

(٢) الترمذي.

وكان النبيﷺ رحيماً، يتألم حين معاقبة الذنب، ويحترم إنسانية الإنسان، فلما رجم المرأة الزانية سبها أحد الصحابة، فزجره رسول اللهﷺ، وبعدما رجم الرجل قال: «استغفروا لماعز بن مالك»[١] وحين ضُرب نعيمان بن عمرو على شربه الخمر شتمه بعض الحاضرين، فلامه النبيﷺ وزجره، وقال له: «لا تفعل..».

وقد عاقب النبيﷺ بالهجران والإعراض عمن كشف عليه الكذب حتى يتوب، كما عاقب بمثل ذلك ثلاثة رجال خالفوا تعاليمهﷺ، فأمر الصحابة كلهم باعتزالهم وتركِ معاملتهم ومخالطتهم حتى ضاقت عليهم الدنيا، إلى أن تاب الله عليهم[٢].

هذا وللعقوبة في الإسلام فلسفة خاصة ومقصد هام، وهي أنه يريد انتزاع أصول الشر قبل وقوعه. فيعلن أنه لا يفلت من سطوة القانون أحد ولا حاكم البلد نفسه؛ فالعدل يعم الصغير والكبير والضعيف والقوي. إلا أن الإيمان أقام داخل نفس المسلم محكمة روحية تحاسبه على الخطأ إذا أخطأ وتبين له خطر كل عمل قبل أن يقوم به، لأنه لا ينجو من عقاب الله من أفلت من قصاص البشر.

---

(١) مسلم، وطبقات ابن سعد.

(٢) تفصيل ذلك في سورة التوبة في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ٩/١١٨] الآية.

نظام الحِسْبة

ويلحق بالقضاء نظام الحسبة الذي سبق إليه الإسلام، ويعني المراقبة العملية للمجتمع من أجل أن يسير على الدستور الذي أنزله الله، ويدفع عنه الانحراف، والمحتسب موظف يده مطلقة كالقاضي.. والفرق بينهما أن القاضي لا يحكم إلا عندما تُرفع الشكوى إليه، والمحتسب يراقب بنفسه ما يحدث ويعاقب الذين يخالفون القانون فوراً.

تتعلق الحسبة بالنظام العام والآداب ومراقبة الأسواق والتجار وأرباب الحرف والمهن كلها بلا استثناء لمنع الغش ودفع الضرر عن الناس، وبالجملة فإن المحتسب يتدخل بشأن كل فرد إذا بدر منه ما يضر المجتمع.. حتى إن سلطته تجري على الحاكم نفسه، وينبهه على الخلل ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر.

وقد فصَّل الباحثون في الحديث عن الحسبة، مما ليس هنا مكانه. والخلاصة أن نظام الحسبة يقوم على مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إحدى القواعد الكبرى في الإسلام.

الحياة الاقتصادية

وضع التشريع الإسلامي منذ نشَأت دولةُ المدينة نظاماً اقتصادياً متكاملاً، يقوم في جملته على أسس واضحة في

التعامل، بحيث يحفظ مال الأفراد وأموال الجماعات، وينمو نمواً أخلاقياً متيناً بعيداً عن الاهتزازات والنكسات التي يشهدها العالم كل حين..

حرَّم الإسلام ابتداء كل معاملة فاسدة تُلحق بالبائع أو المشتري خسارة؛ فمنع بيع الغرر وبيع الإجبار وبيع الحياء وبيع بضاعة غير معلومة، وكل بيع فيه غبن أو غصب أو مجازفة.. ووقف في وجه الغش والتدليس وما يعتمد على الربا بكل أشكاله الظاهرة أو المستترة.. ومنع الميسر.

ومن جهة أخرى حفظ الإسلام المال من التضييع، فشرع الحجر على ممتلكات القاصر حتى يبلغ رشده، وعلى المعتوه، وعلى أمثالهما المفتقدين إلى الأهلية، وعين لهم من يدير أموالهم ويقوم عليها بالحفظ؛ ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾﴾ [النساء: ٤/ ٥] لم يقل القرآن أموالهم مع أنها من ملكيتهم، بل جعلها أموال المجتمع.. وفي سياق هذا الحفظ حرّم الله الإسراف والتبذير، وجعل المال أمانة في أيدي أصحابه؛ فالمال الذي بين يدي الفرد ليس ملكاً له، وإنما هو لله، والعبد خليفة الله عليه؛ ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد: ٥٧/ ٧] ومطلوب منه أن يتصرف فيه وفق شرع الله، وإلا فهو مؤاخذ عليه، كما ورد في الحديث «لا تزول قدما عبد يوم

القيامة حتى يُسأل عن أربع»، ومنها «عن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه ؟»[١] اكتسابه من حلال وإنفاقه في حلال؟

ووضع الاقتصاد الإسلامي نظام توزيع الثروة وإشاعتها لئلا تتركز في أيدي قلة من الناس، ومن هنا أخضع الأموال الموروثة إلى حصص معلومة لكل وارث.. وزاد على هذا أن رغّب في الوصية إلى غير الوارثين لينالوا شيئاً من المال. وحرم الاكتناز لئلا تنقطع الثروة من التداول والاستثمار، فتتعرض للتراجع. فتوعد القرآن الذين يفعلون ذلك بأشد العذاب ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٩/ ٣٤-٣٥].

وفرض الله الزكاة على كل من ملك وفراً من المال زائداً عن حاجته يعود به على المحتاجين إليه لينهض بهم ويحسّن أحوالهم المعاشية. كما رغّب في الصدقة ليعوِّد الناس كلهم على البذل والسخاء، حتى الفقراء فقد طلب إليهم أن يتصدقوا ولو باليسير.. «اتقوا النار ولو بشق تمرة»[٢]. والزكاة تعني النماء، لأنّ فيها ما يسمى اليوم «ضخ الأموال» الذي يؤدي إلى زيادة الكتلة النقدية بالتداول. ومثل ذلك الصدقات.

---

(١) كنز العمال ١٤/ ٣٨٩٨٢.

(٢) متفق عليه.

ووقف رسول الله ﷺ في وجه التسول وسؤال الناس أموالهم، ودعا للحصول على المال بالعمل الدؤوب مهما كان هذا العمل، ما دام من وجه حلال، وقال: «ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داوود كان يأكل من عمل يده»[1] جاء رجل إلى النبي يسأله ولم يكن يملك غير بساط في بيته وإناء، فباعهما له بدرهمين، وأمره أن يشتري بأحدهما طعاماً وبالآخر فأساً، ويخرج للاحتطاب.. ففعل واستغنى عن السؤال. ولذا كان الصحابة أصحاب أعمال من تجارة وصناعة وزراعة وكان منهم أغنياء على ثراء يضربون في الأرض للتجارة. وشاركت الصحابيات في الحياة الاقتصادية.

ورسول الله ﷺ نفسه باع واشترى، وآجر واستأجر وضارب وشارك، ووكّل وتوكل، ووهب واستوهب، واستدان وأدان، وضمن، ووقف، وشفع.. وهو الذي أنشأ سوقاً للمسلمين في المدينة، وكانوا يعتمدون على سوق اليهود، فاستقلوا بذلك في حياتهم الاقتصادية. ثم وضع لهذا السوق نظاماً، وأحدث له مراقبة، وشجع التجار على العمل حين رفع عنهم الخراج، وأسقط الضرائب. ولم يجعل في السوق امتيازاً لأحد عن أحد، ففتح باب المنافسة. وحدد كذلك المكاييل والموازين وضبطها،

(١) البخاري في البيوع.

وتوعد من يتلاعب بها، وأحجم عن تسعير البضائع لما غلت الأسعار، إلا أنه حرم الاحتكار، ونهى عن البيوع غير الصحيحة، وضبط العقود والديون والحوالات ووضع الشفعة، وأمر بكتابة كل ذلك من أجل حفظ الحقوق.

وإلى جانب ذلك وضع النبيﷺ في السوق آداباً للباعة والمشترين والعابرين على حدٍّ سواء، فأمر بالتزام الهدوء، وطالب التجار أن يتركوا الحلِف، والزبائن ألا ينافسوا في الشراء. وحذر من أذية الناس في السوق في أبدانهم، ورغّب الداخلين بقراءة الأدعية المأثورة.. وأمر الجميع بالانصراف إلى الصلاة إذا حان وقتها.

إذن فقد أحدث الإسلام حياة اقتصادية منوعة، فأسس لمجتمع غني يرتقي في مدارج الثراء والرفاهة من طريق الحلال، إذ فتح باب العمل والتجارة على مصراعيه، ودفع إليه، وأعان الفقراء فشرع من أجلهم ما يعينهم مما يأتيهم من الزكاة والصدقات والوقف والنذور والأضاحي والكفارات. فأوجد بذلك بين الناس سيولة نقدية، وجعل المجتمع متماسكاً متحابّاً، وملأ بيت المال من الخراج والجزية والغنائم.

وشجع الإسلام على إحياء الأراضي الموات واستصلاحها؛ «من أعمر أرضاً ليست لأحد فهي له»[1] ونهض بالزراعة وحثَّ

(١) البخاري.

على استثمارها إلى أقصى حدّ ممكن في كل زمان ومكان «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، واستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها، فله بذلك أجر»[١]، وقال : «سبع يجري أجرهن للعبد وهو في قبره ؛ من علَّم علماً، أو أجرى نهراً، أو حفر بئراً، أو غرس نخلاً، أو بنى مسجداً، أو ورث صحفاً، أو ترك ولداً يستغفر له بعد موته»[٢]. وحرم بالمقابل كل عائد لا يقوم على بيّنة ووضوح، فمنع بيع الثمر قبل أن يبدو صلاحه.

وحث الإسلام على الصناعة والعمل عموماً، لأنه أساس الاقتصاد، وشجع العاملين ووعدهم بأجرهم ما دامت نيتهم صالحة.

وحرّم السرقة والغلول[٣] والرشوة وكل مال لا يحق للمرء أن يأخذ منه لنفسه.

وأخيراً فإن قامت حاجات اقتصادية جديدة ومستجدات تقع كل يوم مما يفرضه تطور الزمن كالتأمين وأنواع البيوع والمعاملات الطارئة، فإن لدى خبراء الاقتصاد المسلمين فكراً اجتهادياً يستطيعون بواسطته أن يجدوا لها الحلول المناسبة ضمن إطار التعاليم الشرعية الأساسية التي يقتبسونها من روح

(١) كنز العمال ٩٠٥٦، ٣٥٣١٦.

(٢) كنز العمال ٤٣٦٦٢، ٤٣٦٧١.

(٣) الغلول الأخذ من المغانم الحربية قبل تقسيمها أو سرق من مال الدولة.

الإسلام ومقاصده في الاقتصاد وغيره، ووجدنا مصداق ذلك عند أئمة المذاهب في العصر العباسي المنفتح.

والخلاصة أن الاقتصاد الإسلامي اقتصاد يقوم على الأخلاق، ويحمي المتعاملين فيه من الانحراف أو التلاعب. ويعود بالخير على القوي والضعيف والصغير والكبير.

الحياة العلمية والفكرية

جاء الإسلام بالعلم، فأول ما نزل من القرآن قول الله تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٩٦/١-٥] وواضح في هذه الآيات موضوع القراءة والأخذ بالعلم. ثم تنزل قوله تعالى: ﴿نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: ٦٨/١] فكان ذلك عنواناً كبيراً في أن الإسلام سيقوم على العلم.

وفي كثير جداً من آيات القرآن ما يدعو إلى الأخذ بالعلم والتفكر والتدبر وإعمال العقل، وإثارة فكر الإنسان ..﴿لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٩٠] ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ١٦٤] ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ١٠/ ٢٤] ﴿لِّقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنعام: ٦/ ٩٨] ورفع الله من شأن العلماء ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ ۚ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ١١]، وأشاد بهم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ [الزمر: ٣٩/ ٩]ونعى على

الجهلة الغافلين ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ٧/ ١٧٩].

وقد أشرنا في أول البحث أن معارف العرب في الجاهلية كانت ضئيلة بسيطة، وكانوا بالإضافة إلى ذلك على أميّة متفشّية، أراد الله أن يزيلها عنهم، ويضع فيهم العلم والحضارة ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٦٢/ ٢] فأضافت الآية إلى العلم التزكية والحكمة؛ لأن العلم وحده لا يفلح إذا نزعت منه الأخلاق وعَرِي عن الإيمان.

واجتهد رسول الله ﷺ ليس في محو الأمية فحسب، وإنما رغّب في الارتفاع على مدارج العلم غير المحدود، فجعل «طلب العلم فريضة على كلِّ مسلم»[١] وقال: «ليس مني إلا عالم أو متعلم»[٢] ودعا القرآنُ إلى الاستمرار في طلب العلم ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ٢٠/ ١١٤].

والمتأمل في سيرة النبي ﷺ يرى أنه يحث على طلب العلم بشدة وفي كل مناسبة، وهو نفسه كان مدرسة متنقلة، يعلّم أزواجه في بيوتهن، ويرشدهن، وينبه التجار في السوق إلى

(١) كنز العمال ٢٨٨٧١.

(٢) المرجع السابق ١٠/ ٢٨٨٠٤.

المعاملات الصحيحة ويحذرهم من الانحراف، ويوجه الأولاد في الطريق والبيت إذا رأى منهم ما لا يليق، أو وجد فرصة سانحة لتعليمهم.. وكان ذلك شأنه مع الجميع وفي كل مناسبة «إنما بعثت معلماً»[١].

وحين أسر المسلمون رجالاً من قريش في معركة بدر جعل النبيﷺ فكاك من لم يكن معه فداء أن يعلم عشرة من صبية المسلمين القراءة والكتابة، فكانت تلك مدرسة عجيبة، وفيها تعلم زيد بن ثابت الذي جمع القرآن فيما بعد في نسخة واحدة موثّقة، كما أشرنا إليه.. وبذلك أسس النبيﷺ أول بذرة علمية على طريق محو الأمية.. وانتشرت المدارس إثر ذلك.

وكان رسول اللهﷺ يندد بمن يقعد عن العلم والتعليم فقال: «ما بال أقوام لا يفقّهون جيرانهم ولا يتفقهون، ولا يتعظون.. والله ليعلمن قوماً جيرانُهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم، وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون، أو أعاجلنهم العقوبة»[٢]. ومن هنا كان المسجد جامعة مفتوحة في الليل والنهار، تجري فيها حلقات العلم، ومن أهم أقسامها معهد الصُّفَّة في المؤخرة.

وكان عليه الصلاة والسلام يجعل للنساء يوماً فيأتيهن

(١) رواه الطبراني في الكبير.

(٢) المرجع السابق.

ويعظهن ويعلمهن ويؤدبهن.. وحث الرجل على تعليم زوجته وأولاده ومن في بيته العلم. ولذا كانت أمهات المؤمنين من أعلم النساء، وكن ينقلن للصحابة ما لم ينقله غيرهن، ويعلمن النسوة ما تحتاجه المرأة من أمور دينها، مما يُستحيى ذكرُه أحياناً بحضرة الرجال.

وكانت عائشة أم المؤمنين تلميذة نجيبة لزوجها النبيﷺ، وعت ما كان يقوله ويفعله. وكانت تسأله وتحاوره، وتورد بين يديه المشكلات الفقهية التي تعترضها، وتفتح ذهنها لاستيعاب الحديث النبوي، فنقلت مئات منه، وكانت مرجع النساء في أمور دينهن، فضلاً عن تسنمها الفتوى ومعضلات الفقه التي تُعجز أحياناً كبار الصحابة، فكانوا يعترفون بفضلها العلمي. ولم تكن تشكل عليهم مسألة إلا وجدوا عندها جواباً مقنعاً، حتى قال عروة بن الزبير : ما رأيت أحداً أعلم بالحلال والحرام والعلم والشعر والطب من عائشة.

وكان رسول اللهﷺ يبعث الصحابة إلى الجهات يعلمون الناس القرآن والشريعة والحلال والحرام، فبعث مصعب بن عمير إلى المدينة قبل الهجرة، يعلم المسلمين الجدد ويدعو للإسلام، وأرسل معاذ بن جبل إلى اليمن يفقه الناس في أمور دينهم ويقضي بينهم، وكان أسعد بن زرارة يطوف على دور الأنصار يعلمهم.

وفوق ذلك حمّل رسول اللهﷺ كل مسلم مهمة تبليغ الدعوة القائمة على العلم، فقال في حجة الوداع : «فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فربَّ مبلّغ أوعى من سامع، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»[١] وحذر بالمقابل من القعود عن نشر العلم، فقال : «من كتم علماً مما ينفع الله به الناس في أمر الدين ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة»[٢] ولولا حرص الصحابة على التبليغ ونشر العلم والدعوة لما وصل الإسلام إلى آفاق الدنيا، ولا انتشر.

وقد ربط النبيﷺ العلم بالإيمان، وبيّن أن العالم الذي لم يصحح نيته في العلم ويجعله خالصاً من رغبات النفس وشهواتها يعود عليه علمه بالخسران، فقال : «يؤتى بالرجل يوم القيامة، فيقال له : ما عملت فيها؟ فيقول : يا رب تعلمت فيك العلم وعلمته، فيقال له : كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال : هو عالم، وقد قيل، ثم يؤمر به فيسحب إلى النار»[٣].

والعلم في الإسلام نوعان، علم هو فرض عين، واجب تعلمه على كل مسلم، ويأثم إن لم يتعلمه، وهو تعلّم الحلال والحرام وأركان الدين التي أشرنا إليها، وكلُّ ما يحتاجه في حياته اليومية. وعلم هو فرض كفاية إذا قام به بعض المسلمين

(١) أبو داود والنسائي.
(٢) كنز العمال ٢٩٠٣١، ٢٩١٤٢.
(٣) مسلم، والنسائي.

سقط عن بقيتهم، وهو كل علم في الدنيا، فإذا أحجم المسلمون كلهم عن تعلم علم ما أو تناسوه أثموا كلهم.

بنى الإسلام إذن قاعدة علمية، ودفع المسلمين إليها فظهر سريعاً علماء ما زالوا يكثرون حتى بنوا حضارة عظيمة قامت على العلوم الإسلامية التي تنزل بها القرآن ونطق بها الرسولﷺ، واحتاجوا إلى علوم العربية فأنضجوها، ثم أخذوا بسائر العلوم التي وجدوها عند الأمم الأخرى، وأحدثوا فيها جديداً مفيداً، ولم يتركوا منها علماً واحداً إلا وأخذوا به. فحكموا العالم بالعلم إلى جانب السياسة الرشيدة القائمة على الإيمان والأخلاق.

ومن أهم ما أحدثه المسلمون في العلم إيجاد المنهج العلمي القائم على الحجة والدليل والنقل الصحيح، ذلك أنهم أوجدوا علم الجرح والتعديل في السنة النبوية، فلم ينقلوا نصاً عن أحد إلا وهم ينظرون فيمن نقله من الرجال، فلم يقبلوه إلا من العدول، فميزوا بين الصحيح والسقيم، وبمثل نقل الحديث نقلوا التاريخ وصححوه وصنفوه.

أما العلوم الدنيوية فقد بنوها على الاستقراء والاستنتاج والتجربة والملاحظة والتعليل فكانت علومهم صحيحة وتوصلوا إلى علوم جديدة كعلم الجبر وعلم المعجمات الذي ابتكروه وعلم العروض وعلم الإحصاء الذي استعملوه في الجيش من أجل ضبط الجنود، وقد سبق إليه رسول اللهﷺ عندما قال :

«اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس»[١]. وما من علم يحدث إلا والمسلمون مسؤولون إن لم يشاركوا فيه مشاركة فعّالة.

وأخيراً فقد أوجد الإسلام فكراً صحيحاً تجاه العلم وقاعدة فكرية تقوم على منهج واضح وغاية محددة تنفتح لها العقول.

الحياة الصحية

حرص الإسلام على نشأة الفرد والجماعات نشأةً صحية في البدن والعقل؛ فقال النبيﷺ : «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير»[٢] ولذا أمر بالتداوي عند المرض مع الاعتقاد بأن الشفاء من الله، وأن الدواء سبب «إن الله أنزل الداء والدواء وجعل لكل داء دواء، فتداووا ولا تداووا بحرام»[٣]. وبالمقابل حرّم كل ما يضر بالصحة، فقال : «لا ضرر ولا ضرار»[٤]..

واهتم الإسلام بمبدأ الوقاية لحفظ سلامة البدن، ففتح بذلك سجلاً صحياً حافلاً، على رأسه قول الله تعالى : ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٧/ ٣١] وهذا عنوان الطبّ كما يؤكد الأطباء وكما يقول النبيﷺ : «ما ملأ آدمي وعاء

(١) البخاري.
(٢) كنز العمال ١/ ٥٤٠.
(٣) أبو داود.
(٤) كنز العمال ٣/ ٩١٦٧.

شراً من بطن، بحسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنَفَسِه»[١]. وجعل الصيام دواءً مفيداً، فقال : «صوموا تصحوا»[٢].

وقد ثبت أن النبيﷺ كان مثالاً في الحفاظ على الصحة في طعامه، فما جمع بين غذاءين لزجين، ولا بين مشوي ومطبوخ، وما أكل طعاماً بائتاً، ولا ما فيه عفونة. وكان يشرب الماء مصّاً على ثلاث دفعات يتنفس خلالهن، ونهى عن جمع النوى والتمر في إناء واحد.

وللحفاظ على الصحة حرّم الإسلام أكل الميتة وكل ما لم يُرَقْ دمه من البهائم، وحرَّم أكل لحم الخنزير، وأكل الدم وأكل سباع البهائم والطيور لأنها تقع على الجيف.. كما حرم شرب الخمرة بأشكالها.. وثبت من ذلك كله ما لا يخفى من الأضرار الجسمية التي فصّل فيها الأطباء، فضلاً عن أضرارها الاجتماعية والنفسية والعقلية.

ومن المحرمات المؤكدة للحفاظ على الصحة النهي عن جماع المرأة وقت الحيض وكذلك الزنا واللواط لما في ذلك من أضرار صحية أيضاً يعرفها أهل الاختصاص. وآخر الأمراض الجنسية الفادحة الإيدز. والأمراض الجنسية في

(١) الترمذي.

(٢) متفق عليه.

الأجسام يصحبها أمراض نفسية في الروح وأخلاقية أيضاً فضلاً عن نتائجها الاجتماعية وأولاد الزنا.

ودعا الإسلام من أجل الصحة إلى النظافة عموماً. ومن أهم ذلك الوضوء عند الصلاة، والغسل من الجنابة، وقص الأظافر، وقص الشعر الطويل أو حلقه، والسواك مراراً، وغسل اليدين قبل الطعام وبعده، وغسل النجاسات من البدن والثوب. وكان النبيﷺ إذا عطس غطى وجهه بيده أو بثوبه وغض صوته[١].

وجاء التشريع بالحجر الصحي ولم يكن معروفاً من قبل، ففي الحديث : «إذا كان الوباء بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه، وإذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها»[٢]، وفيه أيضاً : «لا يوردن ممرض على مصح»[٣].

ولأجل الصحة العامة راعى الإسلام الحفاظ على البيئة، فحرّم قطع الأشجار، وجعله نوعاً من الفساد، بل دعا إلى غراسها، ونهى عن التبول في الماء وفي ظل الطريق لئلا يضر بالناس، ودعا إلى إحياء الأرض الموات وأمر بنظافة الأفنية، وبالاقتصاد في استعمال الماء.

---

(١) الترمذي وأبو داود.

(٢) البخاري ومسلم ومالك.

(٣) كنز العمال ١٠/ ٢٨٦٠٢.

وراعى التشريع الصحة النفسية أيضاً، فقد جاء في الحديث قول النبيﷺ «لا تغضب»[١]، وقال : «الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تُطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ»[٢]. قال الله تعالى : ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٣٤]. وأمر المهمومين أن يتوكلوا على الله ويلجؤوا إليه في دعائهم لينفس عنهم كروبهم، فعلمهم أن يقولوا : «اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بكل من غلبة الدين وقهر الرجال»[٣].. ورفع من عزيمة المصابين لئلا تؤثر مصائبهم في نفوسهم فقال : «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله له خير.. إن أصابته سراء شكر، فكان ذلك خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له، وليس ذلك إلا للمؤمن»[٤]. وتحريم الميسر يدخل في باب الصحة النفسية، فما رأى الناس مقامراً مسروراً سعيداً، لأن في القمار انفعالات نفسية وعصبية تؤثر في ارتفاع الضغط والشعور بالانزعاج.

وعاد رسول اللهﷺ المرضى، ورغّب بعيادتهم للتخفيف

(١) كنز العمال ٣/ ٧٧٠٨.
(٢) كنز العمال ٣/ ٧٦٩٠.
(٣) أبو داود.
(٤) كنز العمال ١/ ٧١٠.

عنهم، وعلّم العائد كيف يفعل إذا دخل على المريض، فقال : «من تمام عيادة المريض أن يضع أحدكم يده على يده أو على جبهته، ويسأله كيف هو؟»[١]. ومن الآداب ألا يطيل الزيارة، وأن يتحدث إلى المريض بما يرفع من عزمه ويقويه بالكلام الطيب، ولا يذكر عنده ما يحبطه.

الحياة الأدبية والفنية

الأدب والفن جانبان مهمان من جوانب الحياة، ولعلهما هما اللذان يزينانها ويجعلانها ممتعة.

لم يحارب الإسلام الأدب ولا الفن كما يتصور بعض الناس الذين نظروا إلى الدين نظرة سطحية، ولكنه رسم لهما خطاً، ووظفهما في خدمة الحياة من خلال روح التشريع الذي جاء به.

جاء الإسلام والشعر في الصف الأول من اهتمامات الجاهليين، ولما كان الدين أسلوب حياة فقد تدخل في الكلمة التي يتفوه بها كل فرد وجعله مسؤولاً عنها «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لايرى بها بأساً يهوي بها سبعين خريفاً في النار»[٢]، «وهل يكبّ الناسَ على وجوههم في النار إلا حصائدُ ألسنتهم؟»[٣].. وذمّ القرآن الشعراء غير الملتزمين الذين يغوون

(١) البخاري.

(٢) الترمذي.

(٣) الترمذي.

الناس، وبيّن سبب ضلالهم واستثنى منهم الصالحين في السورة التي تحمل اسمهم ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٦/ ٢٢٤-٢٢٧].. ذلك لأن الشعر الجاهلي كان يقوم على الفخر بالنفس والاعتداد الفارغ بها، ومدح الآخرين للعطاء بإسباغ فضائل عليهم غير صحيحة، والمبالغة في ذم الخصم وإثارة الأحقاد والسخرية بين الناس واستباحة أعراض النساء أحياناً، مما يهيج الشباب ويقلق المجتمع ويزرع الفوضى فيه، ويدعو إلى التنافس بين القبائل، ويدخلها في بؤرة إعلام فارغ ليس من ورائه طائل. ولذا فالشعر والأدب المنهي عنه هو ما كان في الباطل واللهو الفارغ.

وبالمقابل شجع النبيﷺ الشعر الملتزم، وكان له شعراء من حوله يدافعون عنه، وآخرون يقصدونه، يعرضون عليه أشعارهم، فيشجع هؤلاء كلهم ويوظفهم لتأصيل المعاني السامية، والدفاع عن الدين، ويصحح لهم بعض المعاني، ويكافئهم. وقد استطاعوا أن يثبتوا للحرب الكلامية ضد شعراء عدوهم، ويتفوقوا عليهم في القول.

وقد كان النبيﷺ يستشهد ببعض أبيات من الشعر ويعجب

بها، ويقول للكلام الجميل «إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة»[١].

وإذ شارك النبيﷺ الصحابة في بناء المسجد وحفر الخندق فقد شاركهم خلال العمل في أراجيزهم التي كانوا ينشدونها، كمثل قولهم من شعر عبد الله بن رواحة :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الأُلى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

كما أثنى على هذا الشاعر نفسه حينما كان ينشد وهو ممسك بزمام ناقة الرسولﷺ في دخوله إلى مكة عند عمرة القضاء :

خلوا بني الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير في رسوله
يا رب إني مؤمن بقيله أعرف حق الله في قبوله

ولم يكن هذا غناء وإنشاداً فحسب، بل كان رسالة عزّة.

وعندما رجعت عائشة أم المؤمنين مرة من أحد الأعراس سألها النبيﷺ إن كانت المدعوات غنين للعروس وأنشدن لها، فاستغربت لسؤاله، وسكتت، فقال لها : هلا قلتن :

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم
ولولا الحُبَّةُ السمرا ء لم نحلل بواديكم

(١) أبو داود ٥١١.

ولقد كان للفن شأن آخر، فتذوُّق الجمال في الإنسان أمر فطري في طبيعته، ولهذا فقد نمّى الإسلام الذوق والمواهب الأصيلة، وشجعها بعيداً عن الشهوة أو المغالاة، وأول ذلك في موسيقا القرآن الذي أمر النبيﷺ بقراءته منغَّماً مرتلاً بأحكام تجويده من إدغام وإخفاء ومدّ وإقلاب وغير ذلك مما يدخل في باب تحسين الصوت المطلوب.. وقد أثنى النبيﷺ على قراءة بعض الصحابة حينما استمع لأصواتهم الحسنة.

وطوّر المسلمون الموسيقا حينما استقروا بعد الفتوح، ولم يَضَع الفلاسفة من أمثال الفارابي وإخوان الصفا وابن سينا وغيرهم روائع موسيقية فحسب، بل أدخلوا على الموسيقا اليونانية والهندية تصحيحات لا تقدّر، واستخدموا إشارات موسيقية دونوها، وتحدثوا عن آلات مختلفة.. هذا وكان اختيار الألحان والشعر والآلات حسب المتطلبات والإمكانية موضوع الدراسات المعمقة للعزف المناسب للفرح أو الحزن.. أو من أجل المرضى، وبمناسبة ذكر المرضى فإنّ نور الدين زنكي (-٥٦٩هـ=١١٧٣م) الذي بنى مستشفى البيمارستان النوري في دمشق تألم لحال المرضى، فأمر المنشدين من ذوي الأصوات الحسنة أن ينشدوا في الليل بالأنغام، كل يوم بنغم موسيقي معلوم لتسلية المؤرَّقين..

هذا وقد عني المسلمون بالأنغام عناية فائقة.. وطوروها. ونذكر في هذا الباب روائع المعزوفات التي يؤديها دراويش

المولوية على الناي أداء يأخذ بالألباب، ليرقص على أنغامها رجالهم المرتدون للتنانير البيضاء والمعتمون بالطرابيش البنيّة الطويلة.. ولهذا الرقص وإن كان متأخراً أصلٌ في السنة، فقد نزل المدينة ناس من الحبش فجعلوا يرقصون في المسجد ورسول الله ﷺ عند عائشة في حجرتها المطلّة عليه، فكشف لها الستار، واستندت إلى كتفه، تشاهد ما يفعلون، وتطرب له وهو يشجعها ويُسَرُّ لها.

وعلى أي حال فإن في موضوع الموسيقا والغناء عند الفقهاء آراء في الإباحة والحرمة تستحق أن يقف المسلم عليها.

ولئن حذر الإسلام من المنحوتات التي تحكي صور الإنسان والحيوان، لقد أخذ الفنانون المسلمون يبدعون في فنهم نحو جوانب أخرى، صدر منها ما يدهش الذوق والجمال.

أنجزوا روائع معمارية ما تزال ماثلة حتى اليوم في جميع حواضر الإسلام، وهي قبلة السيّاح ومقصدهم، والمثال على ذلك قصر الحمراء في الأندلس وقصر تاج محل في الهند، وما فيهما من أعاجيب فنية وهندسية، وكذلك المآذن المبتكرة وقباب المساجد والخانات التجارية، والأسواق، والقلاع والزوايا والتكايا والدور الجميلة في تصاميمها العملية وأمثال ذلك مما لا يتسع ذكره هنا. وأينما ذهب السائح وجد ما يلفت نظره في جماليات العمارة التي توحي إليه بالفخامة والعظمة والشموخ.

ومع العمارة أبدع المسلمون فن زخرفتها ونقوشها، ومن أهم ما عملوا فيها فن الفسيفساء الملونة بالأحجار الدقيقة، فصوروا منها لوحات طريفة. كما اشتغلوا في نحت الأعمدة ونقش تيجانها على نحو لطيف جداً حتى كادت تنطق بالحياة، ونقشوا كذلك على رخام الجدران والمحاريب وأرضيات الدور والقصور.. وابتكروا القيشاني، ولم يفتهم النقش على خشب المنابر والشبابيك والأبواب الضخمة نقوشاً هندسية تدل على يد صَنَاع وروح شفافة.

وانسحبت الزخرفة والنقش عند الفنانين المسلمين على الأشياء المستعملة كالجلود والأقمشة والأواني المعدنية وخصوصاً النحاس.. وكان في زخارف السجاد ما يأخذ بالألباب نفاسة ودقة صنع.

وطور المسلمون الخط العربي من شكله البسيط ذي الزوايا إلى أنواعه المعروفة فيما بعد، حتى غدا آية في الإعجاز، وأتوا فيه بالأعاجيب، وكتبوا لوحات تخطف بالأبصار، بعضها من ضمن جدران المساجد.. مرصوفاً بالفسيفساء. ونسخوا المصاحف، وزخرفوها بالألوان، وكذلك مؤلفات العلماء الهامة، فبدت على أرقى ما يمكن أن يكتب به خطّ، وتفننوا في التجليد.

كل ذلك يدل على أذواق حضارية بعيدة المدى.